ضمير مستعمل للبيع

اســـــم العمـــــل	ضمير مستعمل للبيع
النـــــــــــوع	قصص
تـــــــــــأليف	فوزي عُمر الحداد
تصـــميم الغـــلاف	عبدالحكيم صالح
إخـــراج داخلـــي	عبدالقادر فايز
الطباعـــــــــة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــــدير العـــــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــــون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي	eddar_press@yahoo.com
الموقـع الإلكترونـي	www.geocities.com/eddar_press
رقـــم الإيـــداع	٢٠١٥/١٠٢٢٦
التـــرقيم الـــدولي	I.S.B.N.:978-977-702-080-0

ضمير مستعمل للبيع

فوزي عمر الحداد

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٥

إهـداء

إليها . .

مثلمَا تَرقُ موجةٌ صيفيةٌ . . .

مثلمَا تَشفُ غيمةٌ سماويةٌ . . .

مثلمَا تنسَابُ نسمةٌ ربيعيةٌ . . .

مثلمَا طيفٌ مِن خيالٍ جميلٍ . . تحنو ويرعَى . .

أُمِّي.

فوزي عمر الحداد

استهلال..

مثلمَا يُشيدُ طفلٌ قِلاعَهُ فوقَ الرمَال..

شَيَّدتُ حُروفي..!!

إنني مَاضٍ الآنَ..

وَسَأتركُهَا – مثلمَا تركَهَا – بجِوارِ البحرِ.

مفتتح الكلام

في أحايينَ كثيرةٍ تعتري حيرةٌ كبرى قلمي العزيز، فلا يدري ما يقول أمامَ بياض الورقةِ الرهيبِ، الذي يمتدُّ أمامي بطولِ الأسطرِ الخاويةِ، فكأنَّما قلمي وقد أمسكَ بزمامِ أوَّل السطر، يُصارعُ مُارداً عملاقاً، ويحاولُ أن يُرديَهُ بضرباتٍ دقيقةٍ متلاحقةٍ، يُهرقُ فيها من جوفهِ بعضاً من إكسيرِ حياتهِ، قد يقربهُ هذا من فنائهِ، إنَّهُ يدركُ تماماً هذه الحقيقة، ولكنهُ لا يتوانـــى عن متابعةِ الصِّراع، ودلـــْق إكسيرهِ، ومحاولته الإمساكِ بزمامِ الأسطرِ حتـــَّى النهاية.

الشفق الأبيض

في محيط واسع، وُلدَتْ...، لم يعتن بها أحد، لم يهتم أحد لشأنها، ننشأت يتيمة، تعلمت القسوة طريقاً للبقاء، فكبرت وامتدت وعرفت معنى القوة، وتحطيم الآخرين.

كانت كلما ازدادت قوة وجبروتاً ترنو إلى البعيد، إلى حيث الشفق الأبيض، فتراه حلماً كالأمل بعيدا كالسراب، فتؤمن أكثر بضرورة الوصول.

في طريقها الطويل أغرقت جزراً وأساطيل، ورأت عوالم عديدة: أسراب المهاجرين في السماء والبحر والصيادين في ليل البحر وفي الأعماق.. كان كل شيء غامضاً، كانت ترى قناديل البحر تضيء أماكن صغيرة في عالم المحيط الغامض، تتعجب من صبرها، لكنها لا تتوقف، تمضي بكل الصلف والهيمنة إلى الغاية الحلم.!

عـــــــانقت الشفق الأبيض بكل شـــــــوق ولهفة، احتواها في هدوء، وامتص عَظَمَتها في لحظات!!.

الموجة لم تعرف بعد، أكانت تلك البداية أم هي النهاية.

٢٠٠٣/٣/١٣

القـــرار

(١)

شعرت بضرورة الإقدام، فقررت!! وخشيةً من أن يتسرب قراري الرهيب كنت أتحسسه في كل لحظة تمر...، كانت الدقائق تمضي ببطء...، وكان صباح اليوم التالي بعيداً جداً، وبات النوم عصياً، ولكنني نمت حتى حدود الأحلام، فغدت أحلامي قرارات تتبعها أمنيات. ما أسهل التمني وما أعذب التمادي في الأحلام اللذيذة!!.

(٢)

صحوت، نظرت في المرآة، رسمت تقاطيع اتخاذ القرار على وجهي وانطلقت، كنت حريصاً عليه في كل خطوة أخطوها نحو العمل، وصلت.. كنت لاهثاً لست أدري لماذا؟ قذفت بثقلي على كرسي المكتب، التقطت سماعة الهاتف، عبثت بالأرقام ثم قذفت السماعة نحو مكانها، جذبت ورقة بيضاء فلم أرَ فيها ما يستحق العبث، رميتها كيفما اتفق.

(٣)

"صباح الخير": هذا ما قالته عندما دخلت مندفعة في نشاط – كعادتها – إلى المكتب، لم تجلس بل أخذت تدور في المكان كأنها ترتبه، كانت تلقي في اتصال جملاً قصيرة: أسئلة، استفسارات، أشياء عادية..

وكنت في داخلي والفوضى تعمني: أبحث عنه، كنت قد رتبت نفسي، كنت قد عبأت وجدي، ولكن عبثاً أحاول، لقد اختفى وتسرب، كعادته، فلم أجده أبداً: ذاك القرار...!!

الجرأة

(١)

لقد أثارت اهتمامي منذ أول يوم التحقت فيه بعملي الجديد في مستهل العام الدراسي، يومها انتبهت على صوتها تطلب قلمي لتوقع به في سجل الحضور الملقى أمامي على الطاولة – لحظتئذٍ – كنت قد أثبت حضوري وظللت برهة غارقاً مفكراً بقائمة زملاء العمل الجدد.

قالت دون أن تقطع توقيعها: "يبدو أني قطعت عليك حبل تفكيرك"؟!!

قلت: لا أبداً.. ما فيش حاجة مهمة!

كانت ابتسامتها الممزوجة بـــ شكراً، قد أخضعتني لأسألها:

ما المادة التي تدرسينها؟؟

(٢)

تكوّن في صدري يومها ألف سؤال؛ ولكن كان اللقاء الأول قد انتهى عند حدود السؤال الأول!!

(٣)

تعلمت اصطناع المصادفات، وإلقاء التحايا الحارة، والعبث بنظرات العيون الشغوفة؛ كل هذا جرى، وظل حبيس الوجدان؛ كنت أرى نفسي مع تسارع الأيام مضطراً كل يوم لوضع مشاعر جديدة تحتل مكانها في غياهب سجن الخاطر، كعادة أشياء كثيرة، لم تر النور مذ دخلت واستقرت هناك، رهينة أعماق الخاطر.

رغم كل هذا الدفق، ظل السؤال الثاني مختبئاً، ظل قابعاً متردداً تحت ملاءته العتيقة، يخاف الشمس، ويخشى الحرية.

مثل قنديلِ غاماً

خبّرني أحد الأصدقاء الذين مكنهم الله – لبعض الوقت – فساحوا في أرض الله زمناً، أنه اضطر للعودة في وقت متأخر من الليل – كعادتنا كلما انتقلنا إلى أرض المطر والثلج و... – عموماً أخبرني أنه ركب سيارة أجرة قافلاً إلى الفندق حيث يقطن، وفي الطريق وقف السائق للشارة الحمراء رغم خلو الشارع تماماً من كل شيء إلا بعض زخّات المطر وحبات البَرَدِ، وهنا دلفَ صديقي قائلاً للسائق: "الطريق خاوية لا ضير من انطلاقك"!!، لكن السائق غضب غضباً شديداً حتى أنه أمره بالنزول، لكنه وبعد جهد أفهمه أنه كان يمزح فقط.

أخبرني صديقي بحادثته هذه وهو يتكلم عن مزايا احترام القانون عندما يكون نابعاً من الذات ودون حسيب أو رقيب.

هذه القصة خطرت ببالي عندما كنت بعد منتصف الليل عند ذاك الشارع المزين بالشارات الثلاث في مدينتي. فرغم السكون المطبق كانت الشارات الثلاث تعمل في صمت، وكان في التقاطع المقابل سيارة وحيدة تقف بإجلال أمام الشارة

الحمراء. كان هذا سلوكاً حضارياً رائعاً دعاني للابتهاج حقاً، فمضيت وأنا أكسر الشارة الحمراء وقلبي متوهج مثل قنـــديل.. مثل قنديلٍ تماماً .

عندما يشاء القدر..

قال حكيم:

"إذا لم يكن ما تريد، فــ رِدْ ما يكون"

(١)

منذ أن شب عن الطوق، وملامح وهيئــة الطبيــب لا تغادر خيالاته، الملابس الأنيقة البيضــاء، الحقائــب الصــغيرة السوداء، الأدوات الرفيعة الملساء.... كان يرى نفســه طبيبــاً عندما يكبر، كانت كل أحلامه تجتمع مفصحة عن غاية واحدة.

أمه كانت تعرف هذه الرغبة الجمــوح فيــه، فكانــت تحرص على مناداته دائما بالدكتور! وخاصة أمام أقرانــه مــن أولاد الحي، الذين كانت تجمعه بهم أوقات اللعب واللهو. وعندما أهدته في العيد نموذجاً لسماعة طبيب، لم يعد يسلم أحــدٌ فــي العائلة من إلحاحه الموصول يطلب إخضاعه للفحص، فيسمح له مرغما بالكشف عليه.

(٢)

كان يرى في شخصية الطبيب عالما أسطوريا مليئا بالأسرار والمغامرة والنجاح، كما كان يرى بإمكانه إنقاذه العالم من كافة أدوائه، فقط عندما يصبح طبيباً.

كان يحلم أنه اخترع عشرات الأدوية ذات المفعول الساحر والغامض، وشفى الكثير من الأمراض المستعصية، كانت أحلامه تأخذه بعيدا، وكان يحب التمادي في الأماني اللذيذة، كان يحب أن يرى كل شيء في دنياه من خلال شخصية الطبيب.

ولهذا كان متفوقاً في دراسته، هو يعلم أن التفوق يوصله إلى كلية الطب، فجاهد حتى حقق معدلا ممتازاً في الثانوية العامة، ففتحت له كلية الطب البشري أوسع أبوابها.

كان يذاكر بفرح ويدرس بفرح، تلمح في عينيه وهو جالس في قاعة المحاضرة ألقاً غريباً يوحي بالثقة والطمأنينة!! كان يعرف طريقه جيدا، فأنهى السنة التمهيدية في كلية الطب وهو يحتل الترتيب الأول من بين زملائه، كان فخورا بإنجازه، مضى على الفور مضى وأبلغ والدته الخبر السعيد، زغردت كما لم تزغرد من قبل، وأذاعت بين كل الجيران الخبر المفرح.

(٣)

في العطلة الصيفية قرر- بحاسة الطبيب - أن يذهب في رحلة مع أقرانه إلى شاطئ البحر، حتى يجدد نشاطه ويستعيد حماسه لمواصلة الطريق الشاق في السنة الدراسية المقبلة التي أوشكت على الدخول.

كانت الرحلة مبهجة جدا، أخذ يستعيد لحظاتها الجميلة وهو في طريق العودة إلى البيت، ثم اجتاحه حماسٌ منقطع النظير، وتمنى لو تفتح الكلية أبوابها بدءاً من الغد!! لقد اشتاق إلى قاعة الدرس، فشرد به خياله بعيدا حتى أوصله حدود سنة التخرج، لكن دوياً هائلا اغتال خياله ثم أفقده الوعي.

لقد كان حادثاً مروعاً، نجا الجميع إلا من بعض الإصابات والجروح، أما هو فلم يستعد وعيه إلا في المستشفى، لقد أصيب بتهتكٍ كبيرٍ في يده اليمنى وجزء، من كتفه، ولم يكن أمام الأطباء من حلٍ سوى بتر ذراعه اليُمنى كلها!

(٤)

بعد عدة أسابيع خرج من المستشفى بيد واحـــدة، لكـــن حماسته ظلت متقدة، حمل كتبه بيده الأخرى وانطلق إلى قاعـــة درسه.

عندما دخل قاعته، لم يجد له مكاناً، كان كرسيه الحميم مفقودا.

هناك خطأ ما، صرخ أمام الجميع.

ثم انطلق إلى عميد الكلية.. أطرق العميد قليلا ثم تماسك وقال: أنت لم تعد تصلح أن تكون طبيباً بعد اليوم!!

(٥)

هوت أحلامه كلها أمام عينيه فجأة، انقبضَت نفسُه كمـــا لم تنقبض من قبل، وانهمرت من قلبه دموعٌ حـــارة!! طافـــت بخياله البعيد صورة قلاعه التي كان يشيدها – صغيراً – علـــى شاطئ البحر، وكيف كانت تحطمها الأمواج، فيعود يبنيها بصبر جميل متجدد.

قرر أن يتماسك ويدافع عــن أحلامــه، لكــن جهــوده ومناوراته لم تجدِ نفعاً، لقد أخبروه وبكل وضوح أنه لن يكون طبيباً ناجحاً بيدٍ واحدة. ولم يكن له من بدٍ سوى الموافقة علــى نقله إلى كلية الصيدلة.

(٦)

في قاعة درسه الجديدة كان مواظباً، يجاهد ليكون فــي مستواه، لكن ظلت في قلبه دمعة حرى، تراها تترقرق في عينيه كلما أمعنت فيهما النظر.

ثأر صغير جداً

تمتع بالأمور الصغيرة..

إذ ربما فكرت يوما في الماضي..

وأدركت أن تلك كانت الأمور العظيمة.

(ث)

هاأنذا أخيرا انتظره، لقد نصبت فخاخي بدقة هذه المرة، لم أوفر جهدا، لقد بذلت كل ما أوتيت من مهارة، لن يتمكن من الإفلات، فالآلام التي سببها لي ذلك الطائر الصغير "بـــوحمرة"* ما تزال ماثلة أمام عيني.

(أ)

يبدو اصطياده صعبا عليّ الآن، فأمي ترقبنـــي وهـــي تحاول منعي بشتى الوسائل والطرق من ممارسة هذه الهوايـــة اللعينة – حسب رأيها – إنها تريدني ولدا مطيعـــاً ملبيـــا لكـــل طلباتها.

استيقظ باكراً وأذهب إلى "الكوشة"* في الشارع الخلفـــي لإحضار الخبز الساخن قبل أن ينفد، ولطالما تساءلت حينـــذاك لماذا ينفد الخبز بهذه السرعة من المخبز؟ تأخير بسيط تأتي بعده

* عصفور صغير أحمر الصدر.
* اسم محلي للفرن.

فلا تجد شيئاً. بعد أن أحضر الخبز ترسلني أمي في مهمة أخرى يومية، وهي محاولة إيقاظ أبي النائم، إنه لا يستيقظ في الصباح بسهولة، إن ترك وشأنه لا يقوم من نومته إلا بعيد الضحى، وحينذاك يقرر البقاء في البيت فلا جدوى من الذهاب للعمل، وحينها ستعاني أمي الأمرين من وجوده، لأنه ساعتها لا يكون له شاغل إلا إبداء الملاحظات على كل شيء وإلقاء الأوامر والتعليمات.

إنه لا يترك هذه العادة أبدا، ولهذا تصر أمي على إستيقاظه مبكراً ليذهب إلى عمله، فتتخلص بالتالي من (وجع الراس) حسب قولها. تظل ترسلني مراراً إلى غرفته لأوقظه أو لأتأكد من أنه قد قام فعلاً، فأبي مخادع في هذه الناحية، يتهيأ لك أنه قد قام فعلاً ولكن ما إن تتركه حتى يعود إلى النوم، أمي تعرف هذه الذميمة فيه، ولذا لا تبرح ترسلني في مهمات استطلاعية مملة جداً بالنسبة لي. بينما تنشغل هي بعمل "الفطور" أو بترتيب أمور البيت التي لا تنتهي.

يخيل إليّ أنها بمجرد أن تنتهي من عمل كل شيء تبعثر كل شيء لتبدأ من جديد، إنها في عمل دائب لا ينقطع. لكنها مع ذلك تجد الوقت لأن " تكبِسَ" عليَّ وأنا أبحث عن الديدان خلف بيتنا أو بيوت الجيران، فتنال من جسدي عصا مكنستها التي لا

تكاد تفارقها، ثم تتوعدني عندما أنجح في الفرار أن تخبر والدي، لكنها لا تفعل، مرة واحدة فقط فعلتها ونلت على إثرها "طريحةً" ظل جسدي يئن منها أياما طويلة.

(ر)

الطائر اللعين لم يأتِ بعد.. كم أتحرق لاصطياده والقبض عليه، فبيني وبينه حساب قديم، لقد خسرت معه جولة فيما مضى، فقد انقشع تراب فخي "المنداف[1]" معلناً نجاحه في القبض عليه، ولكن سرعتي وتلهفي جعلاني أنطلق من مكمني حافي القدمين، فكان أن تسببتْ زجاجة مكسورة على الطريق في جرحٍ غائرٍ بقدمي، حتى أنني لم أتمكن من الوصول في الوقت المناسب، ففر " بوحمرة " وانطلق بعيداً.

سبب لي ذلك الجرح آلاماً مبرحة، في البداية لم أخبر أمي بشيء لكن قدمي ما لبثت أن تورمت؛ فشكت أمي في الأمر وأخذت تفحص قدمي جيداً، ثم قررت أخذي في الحال إلى الطبيب، قرر الطبيب أن يجري لي عملية فورية لتطهير الجرح قبل أن يتفاقم الأمر، فارتعدت فرائصي، وباشر الطبيب عمله

(١) فخ صغير يصنع خصيصا لصيد العصافير، يعرف محليا في منطقة برقة بـ المنداف بكسر الميم وسكون النون..

فبادر بعصر الجرح بكل قسوة، صرخت من الألم حتى خـــارت حنجرتي.

(ص)

بقيت في المنزل أياماً عديدة معلــق الرجــل ومحاطــاً برعاية خاصة من أمي وأبي بينما كانت الشماتة تتقافز في أعين أخوتي الصغار وكذا رفقائي أثناء عيادتهم لي، وكم آلمتني تلك الملاحظة السخيفة التي قالها أحدهم من أن الطائر بوحمرة يغرد بانشراح على سطح بيتنا.

(غ)

لقد عانيت كثيراً، ولذا لابد أن يدفع الطائر اللعين ثمــن ما فعله بي، لقد بحثت كثيراً في سبيل هذا المطلب عن الطعــم المناسب، وكانت عملية البحث محفوفة بالمخاطر، فــأمي زادت بعد ما حصل من رصدها لتحركاتي، ومنعتني منعاً باتــاً مــن ممارسة هوايتي اللعينة حسب رأيها. ولكنني اليوم فررت مــن البيت مبكراً جداً، فلم أحضر الخبز ولم أوقــظ والــدي، كــان هاجس الثأر مسيطراً تماما على نفسي.

(ي)

أسفرت عملية البحث المبكر عن نتائج رائعة، فقد وجدت طعما لن يتمكن طائري من مقاومة إغرائه.. إنها دودة صفراء ذهبية كبيرة تتلوى باستمرار، أكاد الآن ألمح بريقها وهي تتلوى معلقة بالفخ من مكمني هذا بجانب تل الأوساخ التي أقبع خلفه.

هذه هي محاولتي الثالثة التي أحاول فيها أخذ ثأري والنيل من بوحمرة اللعين، لقد أصبح الأمر بيننا مسألة شخصية، إنه يهزأ بي في كل مرة أفشل فيها في اصطياده. يأتي فيدور فوق رأسي دورتين قبل أن يبتعد مزهواً. كذلك أصحابي لا يزالون يظهرون سخريتهم كلما رأوني أحمل الديدان والمنداف.

(ر)

لكنه هذه المرة لن يفلت، فقد درست خطواته جيدا، كلما اقترب من (المنداف)، أراه يدور حوله عدة دورات قبل أن يعبث به فينطبق ويحصل بالتالي على الطعم ويهرب.

لكن خبرته التي استقاها بفضل محاولاتي الفاشلة لن تفيده هذه المرة، فالخطة التي رسمتها محكمة جدا، لقد فكرت فيها طوال الليل وهاأنذا قد نفذتها بدقة، لم يبق إلا أن يأتي

طائري المسكين. لقد استعرت فخاً آخر من أحد أصحابي ونصبته أمام فخي مباشرة وواريته كليا بالتراب حتى لا يظهر منه شيء، وبالطبع كان لا يحمل طعماً؛ فقد كان مخفياً تماماً تحت التراب الهش كاللغم تماماً.

(ج)

عندما يأتي غريمي سيحاول الدوران والالتفاف حول الفخ " الطعم " مظهراً عبقريته كما يفعل دائماً، وسيكون اللغم بانتظاره، خطة محكمة أليس كذلك؟

(د)

نجحت الخطة ووقع بوحمرة في الفخ اللغم، كنت مزهوا كمن حقق إنجازاً عظيماً، وعادت إليّ نفسي، فاستحضرت رفاقي جميعا، ورفعته بين يدي وخاطبته بجلال متكابر ثم قمت بذبحه بزجاجة مكسورة أمام الرفاق تأكيدا لهزيمته، فكان أن تسبب الذبح في قطع رأسه فهذه أول مرة أذبح فيها شيئاً، لم آسف لمَا حدث له وقلت للجمع من حولي إنه يستحق ذلك!!

(أ)

عدت إلى البيت تسبقني الخطا، وقررت أن أكون منذ اليوم ولدا طيباً ومطيعاً سأحضر الخبز من الفرن كل يوم ولن أبرح حتى يستيقظ أبي من رقاده.

وصلت الدار، وجدت أمي حانقة جدا وهي تضع عجينة "المجردقة " في فرننا الصغير المتهالك، وكان أبي واقفا بجانبها يدلي ببعض تعليماته التي تتعلق بالطريقة المثلى لرمي قرص العجين داخل الفرن، وأدركت على الفور الأزمة التي سببتها.. لا خبز.. وأبي في البيت لم يذهب لعمله. ما إن رأياني حتى تركا ما كانا فيه من هرج واستقبلاني .

لقد نلت طريحةً أنّت من جرائها عظامي وكل مفاصلي لوقت طويل. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يتفق فيها أبواي – بهذا الشكل– على شيء واحد. وكأنما لعنة الطائر اللعين ماتزال تطاردني.

الرُّمة طاحت

(١)

في ذلك الوادي المختبئ عن بقية بيوت النجع في السفح المقابل، سكن رجل مع زوجتين، مكر النساء كان حاضراً، تبدأ مراسم الكيد بعد العشاء مباشرة، حيث يؤوب الـــزوج ويتهيـــأ لطقوس النوم الحميمة.

(٢)

ما إن تبدأ مراسم الحب حتى تعمد الزوجـــة الأخـــرى لمكيدة يمكن أن تعطل أو تنغص الحال.. فتعمـــد إلـــى أســـهل الطرق وأصدقها.. إلى رُمة البيت* فتفكها..!! وتصرخ: الرمة طاااااحت.

وهذا يعني أن يقوم الزوج لإصلاحها.

* البيت: عدة أهل البادية في ليبيا، عبارة عن خيمة كبيرة مشدودة للأرض بعدد محدد من الحبال يسمى الواحد منها : رمة .

(٣)

بوغتت الزوجتان بزوجة ثالثة من بنات السفح.. لم تشاركهما البيت، فقد ابتنى لها بيتاً مستقلاً.. كانت شابة يبدو عليها المكر، وكان لابد من اجتماع الكلمة عليها.

(٤)

انطلقتا تتستران بالعتمة المطبقة، لقطع وصلة الحب المتعلقة بالرمة الأساسية، وما إن هممنَ حتى فوجئتا بكلب ضخم ينبح وجهيهما، انطلقتا مذعورتين، وصراخهما يمزق الليل الداكن، بينما اخترقت أسماعهما من ركن الظلام المقابل ضحكات ساخرة.

ضمير مستعمل للبيع

(ض)

درج صديقي دائماً على القول كل صباح عندما نلتقي في المعهد حيث نعمل سوية: "ضمير مستعمل للبيع!! هل تشتري"!؟

فأرد عليه ضاحكاً: وماذا أفعل بضميرك المتهالك الذي أنهكته عبر خمسة عشر عاماً من التدريس المتواصل بلا انقطاع.

يقول على الفور غامزاً: لا.. أنا لم أكن أستعمله على الدوام، فخذ مثلا هذا العام لم يدخل معي ضميري أي فصل دراسي حتى الآن!!

فرددت عليه: وأين هو إذن!؟

استرسل يخبرني هامساً، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد الوشاة، إنه كل صباح يقوم فيعلقه على البوابة الخارجية لسور المعهد، وعندما ينصرف إلى أهله ظهراً يأخذه وينصرف.!

(م)

هكذا كان يدور الحوار الصباحي فيما بيننا في الغالب، وكنت كل يوم أسأل صديقي ذاك عن أحواله مع ضميره المسكين المعلق على بوابة المعهد الخارجية.

(ي)

ذات يوم أخبرني أنه نسي ضميره معلقاً على البوابة وانصرف إلى بيته.!! قال إن أشياء هائلة حدثت معه.. لكن الشيء العجيب حقا أنه بعد ذلك أخذ يتناسى عن عمدٍ فلا يصحب معه ضميره إلى البيت..

(ر)

تغير مهم حدث له بعد ذلك!! رواه لي بهمس مترقب قال إنه عرض على مديرنا الجديد في المعهد ضميره المستعمل ليشتريه كما يعرضه عليَّ كل يوم، ففاجأه المدير قائلا: إن لديه ضمير "أصفار"[1] للبيع.

(١) أصفار أو "ع الزيرو" تعبير شعبي دارج مأخوذ من حقل السيارات ومدى استعمالها، أصفار أي لم تزل عدادتها صفراً.

بين لقائين. . ! !

(١)

ذاتَ لقاءٍ أول.. بدتْ في غايةِ الحشمةِ والوقار.. مبـــالغ في حجابها.. حتى يديها حرصتْ على عدم إظهار نقطةٍ منهُما!! تتلفتُ وهي معكَ في كل اتجاهٍ.. وكأنها تخشى شيئاً مباغتاً!! لا تتحرجُ من إدراككَ لارتباكِها.. بل تؤكـــدهُ بهـــزةٍ خفيفـــةٍ مِـــن رأسها.. ثم تنظرُ أسفلَ قدميك.

(٢)

تتذكرُ وأنتَ على هذا الحال.. كيفَ تعرفتَ عليها ذاتَ حديثٍ فيسبوكيٍ مثير وكيف تَناثرتْ بينكُما الحكايا والتفاصيل .. وكيف كان الليلُ مُنفَسِحاً.. جَريئاً حدَّ الوقاحةِ!!

تتذكرُ كيفَ كانتْ الكلماتُ تذوبُ بسرعةٍ بينكُما رغمَ المسافاتِ الشاسعةِ التي تفصلُ بينَ مَكانيكُما عندما أَخبرتَها أنكَ مسافرٌ لمدينتها.. في عملٍ. .استبشرتْ وهللتْ.. وأبدتْ لهفاتٍ حارةً، نقلتْها إليك..

فاستعجلتَ السفر!!..

(٣)

تعودُ من سِفْرِ أفكاركَ إليها راشفةً أمامكَ بعضَ قهوتِها في بهوِ فندقٍ مزدحمٍ بالعابرين.

تستعجلُ إنهاءَ قهوتِكَ.. وتبررُ انسحابكَ بعملٍ آنَ أوانهُ، وتختتمُ لقاءَكُما المنتظر قائلاً لها: إنها أروعُ كثيراً مما كنتَ تتخيل. !!.

طقوس أنثوية!!..

كانَ كلمَا ذهبَ إليهَا ضَمَتْهُ واحتضَنَتْهُ بعنـــفٍ.. بقـــوةٍ وهدوءٍ مثير!!

فـــــي المـــــرةِ الأخيـــــرةِ... صَـــــدتْهُ بِعنـــــفٍ!! وأطلقـــــتْ عليـــــهِ وابـــــلاً مـــــن أقـــــذع الشـــــتائم!! حتى أنَّها لم تتوقفْ إلا بعدَ أنْ توارى مختفيـــاً فـــي الزقـــاق.

الحب ليس رجلا فقط. . ! !

(١)

لم تبق سوى ليلة وحيدة وينتهي الملتقى الثقافي الذي جمعني بها.. شابة جميلة وشاعرة مبتدئة، حضرت تحمل في قلبها مغامرات شباب غض وطموحات هائلة بالحب والمجد معاً.!

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألتقيها، فقد رأيتها في مهرجان ثقافي أقيم في مدينتها قبل عام، عرفتها واقتربت من تجربتها الأدبية الناشئة، كانت تحتاج للكثير من العمل ولم أبخل عليها بنصحي، واظبت على تصحيح نصوصها وضبطها قبل أن تلقيها على الملأ.

(٢)

هانحن نلتقي مجدداً في العاصمة، في ملتقى ثقافي كبير، كانت تمارس ألاعيب صغيرة للفت انتباهي إلى فتنتها التي تريد أن تجعلها طاغية، وكنت أتجاهل فتزداد إصراراً على الإغواء، لكن الوقت لم يكن – آنذاك – وقتها.

كنت أراها منطلقة بعنف نحو الحياة وكأنها تريد تجربة كل شيءٍ فيها، وكان الحب هو أول الطرق إليها، ولم أكن مستعداً لتعليمها درساً بهذا الخصوص..!!

(٣)

في المساء الأخير، فهمت أنها يئست مني تماماً عندما رأيتها برفقة آخر، لمحت سعادة في عينيها وهي تدعوني لمشاركتهما فنجان قهوة مسائية في مقهى الفندق حيث نقيم.

تركتها بعد برهة وصعدت لغرفتي فلدي أعمال يجب إنهاؤها قبل السفر ظهر اليوم التالي.

(٤)

في الصباح.. فوجئت بها تضع صحن إفطارها على طاولتي، لم تلق التحية!! وإنما نظرت نحوي بانكسارٍ.. أكملت جولتها على البوفيه المفتوح، ولكنها لم تتناول سوى القهوة، كانت في العادة تأكل الجبن والبيض مع عصير البرتقال.

عندما ارتمت أمامي على كرسي الإفطار، تأملت وجهها المتورم.. رفعت إليَّ عينيها المغموستين بألمٍ ما، وقالت:

لمَ تركتَني؟!!

وواصلتْ: كنتَ تعرفُ ما سيحدث؟!! صمتتْ قليلاً ثم أردفتْ: أما أنا فلم أكن أعرف أن الحب يمكن أن يتحول إلى كل هذا القدر من القرف!! وانسدلت من عينيها دمعتان.

قلت موحياً بفهم ما حدث لها ليلة البارحة: لا دخل للحب هنا، وأكملتُ بعد نظرة مصوبة إلى عينيها: ثم إن الحب ليس رجلاً فقط.

ردتْ وقد طأطأتْ وجهها باتجاه فنجانها: نعم، اكتشفتُ أن الحياة برمتها ليست رجلا فقط، درسٌ قاسٍ علمتَهُ لي دون أن تكون المعلم هذه المرة!!

(٥)

ما يؤسفني الآن وأنا أذكر ما حدث، أن تلك الجذوة قــد انطفأت وغابت، ولم أعد أراها بعد ذلك أو أسمع عنها شيئاً.

فهل كانت تحب الشعر حقاً؟! أم تحب الحياة أكثر؟!

حب الحياة يكون من أبواب وعندما نخطئ الباب، نفاجأ بكرهٍ مريعٍ لكل الحياة ولكل أبوابها.

إلى ولد مفترض . . ! !

اعتذر إليك.. فأنا ياولدي من يقف عائقاً دون أن تحقق شيئاً من أحلامك وآمالك.

صدقني! كنت أود أن تتدرج بك السنون، أسعد بك، أراك تكبر أمامي، تتشبث بي عندما أهم بالخروج تريد أن تذهب معي.. وأن تركب السيارة معي.. أتركك تصرخ في كل مرة، مشيراً إلى أمك بأن تكفكف دمعك واعداً إياك بمشوار بعد العصر.. ولا أفعل.!

اعتذر إليك.. ومنك!!

فكم مرت من أعياد ومناسبات لم نشتر فيها لك شيئاً!! نمضي أنا وأمك إلى السوق، وكثيراً ما كنا نفعل، لكننا لا ندخل أي محل يبيع ملابس الأطفال!! نختلس النظر فقط إلى واجهات المحال، ثم نمضي متجاهلين..!!

أيضاً لم يحدث أن اشترينا لك ألعاباً..!! رغم أنها متناثرة على الأرصفة، ينادي عليها الباعة بأرخص الأثمان.!!

ياولدي: هل يحق لك أن تحزن؟

اعتذر إليك.. وأطلب منك المغفرة.. فربما ترشدك دموعي المتناثرة فوق هذه الأسطر لأن تفعل..

نعم.. لاشيء يرضيني الآن غير السـماح.. سـامحني يابني.. فيبدو أنني سأغادر هذه الدنيا قبل أن أتمكن من رؤيتك!!

زوال..!!

(١)

تتخاطفه الجموع... تشده من كل ناحية...

نظر مندهشاً ذاهلاً.. وبدا أنه لم يفهم بعد!!!

رغم أنه طالما كان بين الجموع.. يخاطبها فتهتف له.. يشـــير بيديه فتزداد هتافاً حد الجنون..!!

(٢)

شعر باللزوجة تغمر أماكن عدة من جسده...

حرك يده ومسح بها جبهته.. مررها أمام عينيه.. وكأنما يقـــرأ فيها غيب لحظاته القادمة...

كانت ملطخة بدمه... صرخ:

"حرام عليكم... "

جاءه على الفور الرد المزلزل:

"أنت تعرف الحرام أنت.. أنت تعرف الحرام أنت

أنت تعرف الحرام أنت.. أنت تعرف الحراااام "

(٣)

غامت الرؤية وعمَّ الضبابُ عينيه...

فيما أخذت غيمة خريفية تنقشع مفسحةً المجـــال لنـــور الشمس الذي غمر المكان.

٢٠١١/١٠/٢٠

أسطورة لكل الأزمنة

قُدمت الأجزاء الخمسة الأولى لمسابقة نجلاء محرم للقصة القصيرة – القاهرة عام ٢٠٠٥ وحازت المركز الأول

(١)

حكايتي عجيبة.. بدأت قبل آلاف السنين، عصور غابرة مرت، وأنا كما أنا، خضت كل الأزمنة، رأيت أطيافا من ملايين البشر، ومزقت آلاف الصفحات من سفر التاريخ، وقلبت موازين السماء.

حكايتي عجيبة..

صحوت ذات يوم فإذا بعينيَّ زائغتين، وفؤادي متوثبٌ، ويدي أخفُّ من أن تلحظها عينُ بشر؛ ووجدتني وسط سوقٍ شعبي لمدينةٍ تبدو عريقة، وإذا بي لص، لص حقيقي!!.

أسرق أحلامَ الفقراء، وأشنق آمالَ الضعفاء، أسرق كل ما تقع عليه عيناي، لكنني لم أكن أجرؤ على اقتحام بيوت الأغنياء، إلا عندما أدخلها متطفلاً على وليمةٍ لم أدعَ إليها!

كنت بارعاً في التقاطِ الولائم ِواصطيادِ الموائد، حتى كـــان ذلك اليوم الذي رأيتُ فيه جماعةً من الرجال المهندمين مجتمعين في أحدِ أركان السوق؛ فخمنتُ أنهم ما اجتمعوا إلا ليذهبوا إلى وليمةٍ قد أعِدتْ لهم، فدسستُ نفسي بينهم، وخضتُ فيما كانوا يخوضون من حديثٍ مع أنني لم أفهم شيئا مما يقولون.

سيقوا في النهاية وأنا معهم إلى ساحة السلطان، فأمرَ بإعدامهم جميعاً لأن أدمغتهم كانت كبيرة! أما أنا فقد نجوتُ بأعجوبةٍ بعد أن رويتُ للسلطان حقيقة َأمري، ضحك كثيراً، ثم وبشكلٍ فجائي دخلَ أحد الأروقةِ في القصر بعد أن غمزتهُ إحدى الجواري، فركَ يديه ودلدلَ لسانه واندلقَ في إثرها!.

وعلى نحو ما خرج جميعُ الحرس وراء تلك الجماعة أصحاب الأدمغة الكبيرة، ووجدت نفسي وحيداً في ذلك المكان المهيب، فداهمتني على الفور دوافع اللصوصية، إنها فرصة ذهبية في عرف اللصوص لا ينبغي التفريط فيها، كان كل شيء قابلا للسرقة، غير أنني فضلت شيئا كان السلطان يلهو به وأحيانا يلوح به في الهواء، شيئا طويلاً وخفيفاً وثمينا جداً، أخفيته ُفي طياتِ ثيابي وخرجت.

عرفت فيما بعد أنني سرقت سوط السلطان، وكان سهلاً أن يعثروا عليَّ، ومثلت أمام السلطان، ضربني مئة َسوطٍ على أنفي فاندحر مسحوقا ً في أعماقي، ثم أمر بإعدامي، وبعد ذلك رمى بجثتي في النهر، فامتنع الناس والدواب عن ورود النهر مئة عام، خوفاً من أن يتسرب إليهم شيءٌ من جرأتي فيلقون مصيري..

(٢)

حكايتي عجيبة... بدأت قبل آلاف السنين، عصور غابرة مرت، وأنا كما أنا، خضت كل الأزمنة، رأيت أطيافا من ملايين البشر، ومزقت آلاف الصفحات من سفر التاريخ، وقلبت موازين السماء.

صحوت ذاتَ يومٍ، فوجدتني بأذنينِ صغيرتينِ وعينينِ خرزيتين، وفمٍ قرمزيٍّ، وفراءٍ رماديٍّ ناعم، وذيلٍ طويل؛ لقد كنتُ فأراً، فأراً حقيقياً.

حكايتي عجيبة.. انسربت عبرَ كلِّ الدهاليز المظلمة، ودون أن يلمحَني أحدٌ، دخلت بيوت جميع الجيران، وسمعت كل الأحاديث، سمعت جاري وهو يعترف لزوجته القميئة أنه لن يعيد إليَّ المال الذي اقترضه مني، فابتهجت زوجته جداً، حتى أنها تركته يركض بين فخذيها طوال الليل.

لكنني من شدة حنقي عدت فقعدت قبالةَ وجهها، منتصبا على رجليّ الخلفيتين ومستندا على ذيلي، وظللت أحملق في عينيها، وعندما رأتني صعقت رعباً، وامتدت يدها الغليظة لتدفع زوجها بكل قوة، فاصطدم بالدولاب محطما جميع مراياه، ثم وقع فاغراً فاه مغشياً عليه، بينما استمرت هي تطلق

صرخاتٍ مفزعةً أيقظت كل الجيران، عندها قررت الانسحاب سريعاً من المعركة.

بعد ذلك اليوم أغرمت باقتحام بيوت الناس والتنصت إلى غرف النوم، كنت أتلذذ بالتنطط فوق السرير أو الاختباء تحت المخدات وسماع الموسيقا والأسرار، وامتلأ قلبي بالأسرار، فصرت أوزعها على أصحابي من الفئران.

حكايتي عجيبة.. كان كل شيءٍ يسير وفقَ ما أشتهي، حتى جاء ذلك الهر الضخم ذو المخالب الشرسة وسكن شارعنا، ومن ثم شرع في الفتك بالفئران.

اجتمعنا لنجد حلاً، وأدلى كلٌ برأيه لكن رأياً واحداً قدمته إليهم لقي استحسانهم جميعاً، لقد اقترحت عليهم أن يعلقوا في رقبة القط اللعين جرساً! أتأمن جميع الفئران اغتيالاته الدموية، لكن فرحتهم خبت فجأة عندما قال أحدهم: ومن سيضع الجرس في رقبته؟.

نظر الجميع إليَّ، وأخذوا يغدقون عليَّ أوصاف الشجاعة والبسالة والذكاء، أخبرتهم أنني فأر عادي مثلهم تماماً، وأن بي من الجبن والخوف ما بهم، لم يصدقوا، ودفعوا بي صوب تنفيذ هذه المهمة الخطيرة.

أخذت الجرس وخرجت من بينهم في موكـــب مهيـــب، ومضيت بهدوءٍ إلى حيث يقبع الهر اللعين.

رميت الجرس عند رجليه، ركعت بين يديه، وأخبرتـــه تفاصيل المؤامرة وأرشدته على مكان اجتماع القادة! وهربـــت إلى الشارع الخلفي!!

(٣)

حكايتي عجيبة..

بدأت قبل آلاف السنين، عصور غابرة مرت، وأنا كما أنا، خضت كل الأزمنة، رأيت أطيافا من ملايين البشر، ومزقت آلاف الصفحات من سفر التاريخ، وقلبت موازين السماء.

عندما أفقتُ صبيحة ذلك اليوم كان كل شيءٍ قد تغيرَ على نحوٍ مثير، ففي دروبٍ مظلمةٍ ومسالكَ وعرةٍ وجدتني أسيرُ وببطءٍ شديد! تأملتُ المكان، فإذا به قصرٌ ملكيٌ مهيب، ينتثرُ في أرجائهِ الخدمُ والحشم، وإذا بي افترشُ سريرَ الملك!.

وعلى نحوٍ فجائي سمعتُ بعضَ الخدمِ يتهامسون بحثاً عني، فاختفيت على الفور في حشايا الأغطيةِ الحريريةِ الناعمة، لم يتمكنوا من اصطيادي ورجعوا خائبينَ ككلِّ مرة. في أواخرِ الليل كنت أذرعُ جسدَ الملك بحثا عن معاشي، لقد كنت قملة!! قملةً حقيقية..!.

حكايتي عجيبة... كنت غارقةً في النعيم، أعيشُ في فراشٍ وثيرٍ وأتناولُ من الطعامِ أطيبهُ وأوفرهُ، كيف لا، وأنا أعيش في مخدع الملك!!

كنت أدركُ جيداً أهميةَ الموقعِ وخطورةَ المكان، ولذا ظللت أدرسُ خطواتي بدقةٍ وتمهل، وخاصةً عندما أشرع في تناول الطعام، أظلُّ أتأكد مراتٍ عديدةٍ من استغراقِ الملك في سباته العميق ثم أقبل فامتصُّ الغذاءَ الدافئَ المشبعَ بكل أصناف اللذات، وفي هدوءٍ تامٍ وتلذذٍ حذر.

مع مرور الوقت تعودت حياة الترف، وبدأ شيء من الاطمئنان يتغلغل إلى قلبي، حتى أنني صرتُ أذكرُ اللهوَ والمرح، ثم رأيت أن آخذ نفسي بشيءٍ من اللهو أو ربما المجون... ولم لا!.

في هذه الأثناء مر بي البرغوث زائراً، وعلى غير العادة التي كنت أقوم فيها بطرده من المكان على الفور، دعوته لبعض السمرِ ، رغم أنه كان لئيماً لا يؤمن له جانب. لكن البرغوث وهو يرى النعيم الذي هبط فيه فجأةً، انقضَّ على المائدة دون ترو وبعنفوان ونهم شديدين، وحلت الكارثة: فقد استيقظ الملك فزعاً، وأمر الخدم بتفتيش فراشه...

أنسل الزائرُ اللعين هارباً ببراعته المعهودة، ولم أتمكن أنا من الإفلات.. وقعت بين يدي الخدم، فقد كنت في وضع لا

يسمح لي بالمناورة، وبخاصة بعد أن كبر حجمي وزاد وزنـــي بحيث كان الفرار في الوقت المناسب أمراً مستحيلاً..

كان المصير المحتوم بانتظاري، أسرع الخدم ودون أية مراسم وأعدموني " قصعاً ".

(٤)

حكايتي عجيبة..

بدأت قبل آلاف السنين، عصور غابرة مرت، وأنا كما أنا، خضت كل الأزمنة، رأيت أطيافا من ملايين البشر، ومزقت آلاف الصفحات من سفر التاريخ، وقلبت موازين السماء.

عندما أفقت ذلك اليوم كانت الضجة في كل مكان، صيحات الجند تخرق الفضاء، صهيل الخيل يمزق الأنحاء، وصلصلة السيوف تعبق الأرجاء.

ووجدتني ارتدي ملابس غريبة وانتطق سيفاً عظيماً، وأقبع وحدي في خيمة جليلة.

- سيدي..

≠ ماذا أتقصدني أنا؟

- نعم سيدي الاسكندر!

≠ الاسكندر!! أنا؟

- نعم سيدي، قادة الجند يودون الاجتماع بك!

≠ بعدين، بعدين، (عدي توا)!!

- ماذا قلت سيدي؟

≠ آ .. قلت... حسناً، قل لهم لحظات وسأنضم إليهم.

يا إلهي، ما الذي يجـــري، أي قـــادة، وأي جنـــد، وأي اجتماع!! وما الذي أراه خارج هذه الخيمة: جنود بالآلاف وخيام وعتاد عظيم، ولكن أين الدبابات والطائرات والصواريخ!

يبدو أنني الإسكندر حقاً، أعتقد أن هـــذه جبـــال الســـند ووراءها النهر الكبير الذي سنعبره غدا، نعم هذا صحيح، وهناك اجتماع مع القادة بخصوص عبور النهر، سأدعوهم للاجتمـــاع، إنني أشعر الآن بأن الأمر عاجل، ويبدو فعلا أننـــي الإســـكندر المقدوني بشحمه ولحمه وسيفه أيضاً.

- سيدي، لقد قبضنا على هذا اللص!

≠ لص! وماذا سرق؟ دبابة أم تراه حـــاول اختطـــاف طائرة!.

- لقد سرق شيئاً من مؤونة المعسكر، سيدي.

≠ إرهابي إذن، هل تريد تجويع المعسكر!! أجب أيهـــا اللعين؟

= لست كذلك! وإنما قمت واستردت شيئا مما نهبتموه من أرضي التي حولتموها خرابا، الإرهابي من يدمر المدن ثـــم ينهبها بحجة أنه فاتح بطل.

≠ ما الذي يهذي به هذا اللعين، أيها الحرس: خذوه من أمامي.

- ماذا نفعل به سيدي؟؟

≠ اقتلوه أيها الحمقى!!.

(٥)

حكايتي عجيبة..

بدأت قبل آلاف السنين، عصورٌ غابرةٌ مرت، وأنا كما أنا، خضتُ كل الأزمنة، رأيتُ أطيافاً من ملايين البشر، ومزقتُ آلافَ الصفحات من سفر التاريخ، وقلبتُ موازينَ السماء.

حكايتي عجيبة.. صحوتُ ذاتَ يومٍ، فإذا بي والكلاب تحيطني من كل جانب، وعلى نحو فجائي أحاطت بي مجموعة من الكلاب، بعضها طفق يلحس أعضاء جسمي، بينما اكتفى بعضها الآخر بالتحديق مليا في ملامحي! وتفحصتُ أعضائي فإذا بي كلب، كلبٌ حقيقي!!

لكنني لم أكن كلباً عاديا، كنت مختلفا، لم أكن أحب التثاؤب، كما أنني لم أكن أستسيغ مصمصة العظام أمام موكب شيخ الكلاب! العظام لم تكن تروقني أبداً، كنت أبحث عن مكاني! وكنت أحس على الدوام أن هناك من يهمس خلفي.

كان مجتمع الكلاب هذا يعيش في أحد السهوب الخصبة، المحاط بأسوار عالية، لا يخرج منه أحد ولا يستقبل أحداً، وكان الكلب الشيخ كريما مع شعبه، كان يمنح العظام المكتنزة بسخاء منقطع النظير، كان يحب أن يرى مشهد الجموع وهي تتمسح

بالعظام التي يلقيها، كما أنه أمر في آخر خطبة له بمنح كل كلب خيمة تقيه حر الشمس وبرد الشتاء.

وذات نهار، عندما كنت مستلقيا في العراء بعد أن رفضت أخذ خيمة الشيخ، سمعت أحدهم يعلن أن الشيخ سيخطب في الجموع بعد قليل.

كان خطابا حماسياً، توعد فيه بتصفية تلك الشرذمة الخبيثة كما أسماها والتي كانت تنتشر في الأدغال المجاورة للمدينة، أنهى خطبته بمرسوم أمر فيه بإنشاء حانة عظيمة تلهو فيها الكلاب وتشرب كل ما طاب لها دون رقيب، وتجهيز ملاعب تتقلب فيها وتمرح كما تشاء؛ وعندما هم بالمغادرة أخذت الجموع تموء، ثم طفقت تتقافز بعضها فوق بعض تحاول التقاط العظام المنثورة.

كنت سأسعد بالعيش هناك، لولا أن شيخ الكلاب كان يحظر شيئا واحداً، لا يتسامح أبداً مع أي كلب ينبح، لقد كان النباح جريمة في مدينة الكلاب!

ولم أكن لأقوى على حياة الصمت، كما أنني لم أكن أعرف المواء؛ كنت أشعر بحاجة ملحة لأن أطلق عنان حنجرتي، ففي رأسي الصلب كانت تقبع ملايين الأصوات

المكبوتة، ولكن هيهات، فشيخ الكلاب لا يرحم من يقترف هـذه الجريمة، ولذا لم يكن أمامي من حلٍ إلا الرحيل.

وضعت بدقة وحذر خريطة الهروب، وفي ليلة لـيلاء غافلت حراس الصمت، وقفزت هاربا صوب البرية.

قبل أن أواصل ملحمة الخلاص وقفت على ربوة محاذية لطرف السهل، كان لهاثي شديداً ورغم ذلك نظرت إلى المدينـة الغارقة في السواد وشرعت أنبح أنبح أنبح!

ثم انطلقت نحو الدغل، وهناك تسلقت أول شجرة مناسبة ونمت كما لم أنم من قبل.

استيقظت في الصباح لأجد عدداً من الكلاب بهيئة هزيلة تحيط بي، سألوني بهدوء وفضول عن جهة مَقدِمي، فـأخبرتهم، ثم طلبت منهم السماح لي بالإقامة بينهم، فعمّهم سكونٌ رهيـب، وفجأةً انهمرت عليَّ الأسئلة: كيف تترك مراتع النعـيم، كيـف تترك الخيام الظليلة، والعظام المكتنـزة، والشـراب المـنعش الوفير، وتأتي لتعيش معنا حياةَ شظفٍ وكدٍ؟! وسمعتُ الكثير من مثل هذه الأسئلة، ورأيت نظرات العجـب والاسـتغراب تعلـو وجوه الجميع، لكنهم في النهاية اتفقوا على سؤال واحد قالوا لي:

أخبرنا بالضبط ما الذي تريده من مجيئك إلى هنا؟! قلت لهم: أريد أن أنبح!!!.

(٦)

حكايتي عجيبة..

بدأت قبل آلاف السنين، عصورٌ غابرةٌ مرت، وأنا كما أنا، خضتُ كل الأزمنة، رأيتُ أطيافاً من ملايين البشر، ومزقتُ آلافَ الصفحات من سفر التاريخ، وقلبتُ موازينَ السماء.

صحوت ذات صباح فوجدتني في غابة ظليلة تعلو أشجارها سامقة في السماء، بينما تدب على الأرض حياة لم أرها في حياتي قط، وإذ بي وقد غطى الشعر الأسود الفاحم جميع جسدي! وتأملتُني وإذا بي قرد..!! قرد حقيقي.!

حكايتي عجيبة..!!! لم أكن قرداً عادياً.. ولذا كان من المحتم أن استغل بعض الأوضاع، وأهمها اختفاء الأسد المفاجئ من الغابة، وهكذا بقليل من المكر والدهاء وجدت نفسي أحكم الغابة كلها، حتى ذلك المنبع السحري ذاك الذي تستحم فيه تلك الظباء الساحرة الفاتنة.

وكان لابد من تدعيم أركان الحكم الرشيد الذي فرضته في الغابة، تلك الحمامة غنت في الفضاء فقطعت رأسها وفرقت شملها وفرضت على نسلها إطعام ذلك الثعلب المسكين أبد الدهر

بواحد من فراخها كل دورة تفريخ، فغدا الثعلب بعد ذلك، أحد حراسي المخلصين من ذوي المشورة والرأي.

برزت جماعة من الطيور وبعض الحملان تطالب بتحسين هامش حرية التحرك وشيوع ثقافة التسامح بين أجناس الحيوانات في الغابة، حتى أنها تجرأت وطالبتني بكل وقاحة بمراعاة الحقوق العامة لسكان الغابة، فرقتُ جمعهم وشويتُ بعضهم وأهدرتُ دماء من فروا هاربين من بطش سلطتي الرشيدة.

حاولت بكل جهدي فرض سياستي الحكيمة على كل أرجاء الغابة وما حولها من سهوب، أنشأت سجوناً معلقة في أعالي الأشجار خصصتها للسلاحف وقنافذ الماء والأسماك المتمردة، وأخرى تحت الأرض لبقية الحيوانات العنيدة التي لم تفهم قط أن الحرية الحقيقية ليس أن تبول على أي شجرة في الغابة مدعياً أنها لك، بل أن تلتزم بالخطوط الحمراء التي حددتها بدقة من اليوم الأول لتولي السلطة.

أفهمتهم أن الحرية ليست في العواء والنهيق وما مثلها من أصوات فجة، إنما الحرية في الصمت اللذيذ والهمهمة المطيعة والقدرة على العطاء والعمل المتواصل، وتأمل منجزاتي

في حكم الغابة والدعاية لها والتبشير بها في الغابات الأخرى التي يصلون إليها.

أعليت من شأن القرود وجعلت لهم الكلمة العليا في الغابة، وسعيت أن يقتنع الجميع أن القرود سلالة نقية أصيلة تنحدر من سلالات ملكية، وصغت بهذا المراسيم والقوانين، ومنحت النياشين ووزعت الأوسمة على كل المنافقين والممالئين الذين كثروا من حولي كثرة مفرطة، حتى اقترح بعضهم بحماس شديد إنشاء رابطة عالمية للقرود الملكية مهمتها التبشير بعصر عودة السلالة الملكية لمكانها الطبيعي في حكم العالم.

مضى كل شيء كما خططت له تماماً، حتى سرت تلك الشائعة الخبيثة، ذلك أن أحدا ما سرب خبراً مفاده أن الأسد المختفي قد وصل أخيراً وهو يتحضر لدخول غابتنا خلال أيام.

كان هذا الخبر كفيلاً بتهييج الحيوانات ضدي، فَعَلا صوتها المكتوم مطالباً بالحقوق والحريات ثم تطور الأمر إلى تجمعات عارمة طالبت أولا بالإفراج عن المعلقين فوق الأشجار والمدفونين تحت الأحجار، وعندما أُرغمت على تلبية هذه المطالب، تعالت الأصوات التي تطالب بعزلي عن سدة الحكم ثم ما لبثت أن غدت تطالب برأسي.

وكلما كانت الإشاعة تشتد كانت الجموع تقوى وتتكاثر، ويتفرق من حولي الأنصار حتى وجـــدتني أهـــرب صـــاغراً مستجيباً لنصائح مستشاري الثعلب اللعين...وعندما هـــدأ كـــل شيء لم يأت الأسد..!!

..حكايتي عجيبة..

الفهرس

استهلال..... ٧
مفتتح الكلام ٩
الشفق الأبيض..... ١٣
القرار..... ١٧
الجرأة..... ٢١
مثل قنديل تماماً..... ٢٥
عندما يشاء القدر..... ٢٩
ثأر صغير جداً..... ٣٧
الرمة طاحت..... ٤٧
ضمير مستعمل للبيع..... ٥١
بين لقائين..... ٥٥
طقوس أنثوية..... ٥٩
الحب ليس رجلا فقط..... ٦٣
إلى ولد مفترض..... ٦٩
زوال..... ٧٣
أسطورة لكل الأزمنة..... ٧٧

- أستاذ النقد والأدب الحديث بكلية التربية جامعة عمر المختار – ليبيا.

صدر له الكتب الآتية:

- حروف أثقلها الندى (مقالات في الثقافة والأدب) عن مركز نهر النيل للنشر بالقاهرة عام ٢٠٠٨.
- الشفق الأبيض (قصص) عن المؤسسة العامة للثقافة طرابلس ليبيا عام ٢٠٠٩.
- دراسات نقدية في القصة الليبية، صادر عن المؤسسة العامة للثقافة طرابلس ليبيا ٢٠١٠.
- بالإضافة لعدد من الكتب المشتركة التي صدرت ضمن ندوات بحثية شارك فيها في الكويت وتونس واليمن وليبيا.

أنشطة ومشاركات:

- رئيس تحرير مجلة الفصول الأربعة الصادرة عن الرابطة العامة للأدباء والكتاب ليبيا.
- مدير إدارة البرامج بإذاعة البطنان المحلية بطبرق.
- مدير تحرير صحيفة المسيرة.
- رئيس القسم الثقافي في عدد من الصحف مثل: صحيفة البطنان، صحيفة أخبار طبرق، صحيفة المختار، صحيفة صدى البرلمان.
- شارك في الكثير من الفعاليات الثقافية في ليبيا وخارجها، منها: مؤتمر الكاتب والمستقبل المنعقد بالقاهرة عام ٢٠٠٥ برعاية اتحاد كتاب مصر، وندوة ابن خلدون المنعقدة بصنعاء/ اليمن عام ٢٠٠٦ برعاية اتحاد الأدباء والكتاب العرب، مؤتمر المرأة العربية والإبداع بالكويت ٢٠٠٩، عدة ندوات وأمسيات بمعارض الكتاب في معرض القاهرة الدولي ، معرض الدار البيضاء للكتاب بالمغرب، ومعرض تونس للكتاب.. وغيرها.
- عضو في: اتحاد الأدباء والكتاب – رابطة الصحفيين الليبيين.

- حاز الجائزة الأولى في القصة القصيرة من خلال قصته أسطورة لكل الأزمنة في مسابقة نجلاء محرم للقصـــة القصيرة في دورتها الخامسة بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

للتواصل مع الكاتب

العنوان الالكتروني للمؤلف: Fozy1969@yahoo.com

أو من خلال صفحته على فيس بوك: فوزي الحداد (الكاتب والصحفي)
https://www.facebook.com/fawzyalhadad